وقد يعني على هامش ذلك المعني إبرازاً لسيرة ما يتوكؤ عليه من غير الله أنه حية تسعى، تخليصاً. لموسى أن يتوكأ نفسياً على أي متكىءٍ سوى الله، كما خلع عنه نعليه إذ هو بالواد المقدس طوى، حيث التجرد من كل التعلقات لزام الحضرة الربانية لتلقى الوحي، وهنالك ينعكس خلع النعلين - لتخلِّيه عما سوى الله - وحياً يوحى، ثم إلقاءه عصاه آية لوحيه أمام عدوه حية تسعى.

وكيف تنقلب العصا حية تسعى كما هنا، أم جاناً مهتزاً كما في النمل (٣١) والقصص (١١): ﴿رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أم ثعباناً مبيناً كما في الشعراء (٣٢) والأعراف (١٠٧) والأوليان حالة واحدة، والأخيرة حين ذهب إلى فرعون؟.

إنها خارقة إلٰهية كآية تدل على وحي الرسالة ورسالة الوحي، وركب العلم السائر مهما كان حائراً فيها وحق له أن يحتار، ولكنه ببلوغه ذروة من رقيّه يختار ما فيه يحتار، إنه في إمكانية الانقلاب يوافق الأصول العلمية الثابتة، ولكنه لا يسطع عليه إلا الله دون سواه، حيث العناصر تتركب من جزئيات، وهي من ذرات، وهي من أجزائها من الكترونات وبروتونات..

إذاً فالأصول الفيزياوية والكيماوية لكافة العناصر هي الذرات المنتهية إلى أجزائها معروفة وسواها، وما اختلاف العناصر والجزئيات والذرات إلا باختلاف التركبات مادة ومُدة وعِدَّة وعُدَّة.

وقد أتيح للعلم لحد الآن تبديل عناصر إلى أخرى! أفلا يتاح للقدرة الربانية الخلاقة لها تبديلات أخرى لا يقدر العلم عليها، اختصاصاً بساحة الربوبية كما هو في أصل الخلق وفروعه.

فالأجزاء التي تتشكل منها الحية هي هي التي شكلت منها العصا، ثم هنالك. خارقتان اثنتان، أولاهما القفزة الزمنية لذلك الانقلاب سراعاً، وقد

يحتاج إلى الآفات من السنين وتوافقات لا يعلمها ويقدر عليها إلا الله، وثانيتهما خلق روح الحية كما في سائر الأرواح على الإطلاق.

إذاً فليست الخارقة الإلٰهية خرقاً لضوابط العلية، وحرقاً للعلل، بل هي تسريع في ترتيب العلل بقفزة زمنية أماهيه من جانب علة العلل، فهو الخالق للأسباب والمسببات، وله الأمر في شروطاتها وكافة لزاماتها وتدبيراتها وتقديراتها ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

ثم وما خَلْقُ حية تسعى من عصا بأصعب منها المخلوقة بولادتها، أم في أصلها الأول حيث خلقت من تراب، والأفعال الإلٰهية كلها من اختصاصات ساحة الربوبية ليس لأحد فيها نصيب حتى المرسلين، فإنهم ليسوا إلا أداة ومظاهر لفعل الرب، وحياً أم آية تثبته.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[٢] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[٣].

لقد خاف موسى من حية تسعى وهي من عصاه؟ عساها تلدغه علّه ظلم وعصى، فنهاه ربه «لا تخف» بعدما ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ ﴿وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[٤] كمن معك، و﴿لَا يَخَافُ... إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ كما ظلم فرعون وخاف ثعبانه العظيم ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ﴾ وهي حية تسعى ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ بعد أخذك إياها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهي العصا.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣١.
(٣) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.
(٤) سورة القصص، الآية: ٣١.

وترى كيف يجوز لموسى أن يخاف فعل الله الآية، وهو لدى الله، رسالة من عند الله، يخاف آية الرسالة الإلٰهية؟.

موسى هنا وفي بداية الحال، المنقطعة النظير حتى الحال، لم يكن يعرف أنه آية إلٰهية لرسالته، فعلّه حسبها امتحاناً من الله ببلية جلية عما قدم فأخره عن رسالته وكما قال حين قضى على القبطي ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[1] أم خافها خوفة أن تكون هي الحية التي أضل آدم وأغوى.

ثم وخوفه منها دليل أن قلب العصا إليها لم يكن من فعله فما هو إذاً بسحر حيث السحر من فعل الساحر فلا يخافه، وهكذا تكون آيات الرسالة كلها أنها من أفعال الله تظهر على أيدي رسل الله لتدل بذلك على اختصاصهم بالله فيصدَّقون في وحي الله.

وهنا ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ دليل أمره بأخذها وهي حية تسعى، ولكنه تعالى طمأنه أنه سيعيدها بعد أخذها سيرتها الأولى، وهي آية أخرى، فكما أن قلب العصا آية كذلك قلب الحية عصا آية، وفيها كرامة لموسى أن أظهرهما بيده، ولكي يعرف بذلك اختصاصه بكرامة ربه رسالة بآية بيِّنة.

فإنما عليه الإلقاء وعلى الله قلبها بذلك حية تسعى، ثم عليه أخذها وعلى الله أن يعيدها سيرتها الأولى، وقوعاً للمعجزة في صورتها الأخرى كما كانت العصا في حالتها الأولى.

ولماذا ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ دون صورتها، حيث الصورة الأولى لا تلازم السيرة الأولى، فقد يجوز أن تتصور الحية بصورة العصا، ولكن السيرة الأولى وهي الخشبية تلازم صورتها الأولى.

وترى ما هو عامل النصب لـ ﴿سِيرَتَهَا﴾ أنصباً بنزع الخافض؟: إلى

(١) سورة القصص، الآية: ١٦.

سيرتها الأولى، أم بفعل مقدر من نفس السيرة: تسير سيرتها الأولى، والحذف دون مرجح ولا قرينة خلاف الفصاحة!.

«نعيدها» أدبياً تتطلب مفعولاً ثانياً هو بطبيعة الحال ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو المتعين معنوياً حيث الإعادة متعلقة بحية تسعى، والمُعاد هنا ليست الصورة الأولى بل مثلها ضمن السيرة الأولى الخشبية، والمادة نفس المادة، زيدت لها صورة حية تسعى بسيرتها، ثم أعيدت المادة نفسها إلى ما كانت سيرة وصورة، وذلك إعادة مثل الصورة الأولى إلى المادة وليست هي إلا هيه.

وإعادتها صورتها الأولى نفسها مستحيلة في بعدين، إعادة المعدوم فإنها ممتنعة، وتبديل المادة صورة بلا مادة، وأما إعادتها سيرتها فليست إعادة شيء بل هي تعني قلب الصورة الثانية وسيرتها إلى الصورة الأولى وسيرتها والمادة هي المادة.

فهنا في قلب العصا حية تسعى، قلب لصورة العصا وسيرتها، إعداماً لهما إلى أخرى، ثم في إعادتها سيرتها الأولى سلب أوّل هو سلب روحها، وسلب ثان هو سلب صورة الحية، وبينهما خلق لمثل الصورة الأولى، ومجموع هذه الثلاث عبَّر عنها بإعادتها.

هناك قال موسى عن عصاه ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا...﴾ عصاً لمآربه كموسى، وهنا انقلبت إلى عصا الرسالة حيث يتوكؤ عليها فيها، ويهش بها على غنمه - وهي أمته - هشاً، ولانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر، ولنفس العدد طريقاً يبساً في البحر، ثم له فيها مآرب أخرى قدَّرها الله لهذه العصا، علَّ منها مآرب القائم المهدي (صلوات الله عليه) من هذه العصا أفضل مما كان لموسى.

هذه آيتا العصا، ومن ثم آية اليد البيضاء، وهي ألصق به من الآية الأولى:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[1].

الجناح هو الكتف والإبط تشبيهاً بجناح الطائر حيث يعني منه هنا أن يجنح طائر الرسالة الموسوية إلى محطة الدعوة القاسية الفرعونية، فأصبحت اليد والعصا برهانين من ربه إلى فرعون وملائه.

و﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تعني أن بيضاءها سليمة دون برص أو مرض[2]، فلذلك، ترجع إلى ما كانت كما أعيدت العصا إلى سيرتها الاولى.

وقد خرجت يد موسى - وعلّها هي اليمنى - بيضاء مشرقة وقد كانت سمراء[3] وقد تكون إشارة إلى إشراقة اليد الرسالية الموسوية في بلاغها، وكما خرجت مشرقة في بلوغها، فهنا موسى يسلك يده ويدخلها تحت إبطه، وقد صور له صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة في ذلك الموقف المُجنح الطليق من رتبة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾:

﴿لِنُرِيَكَ﴾ قد تتعلق بـ «ألقها» و«اضمم» كبداية وتقدمة: قلنا لك ألقها واضمم لنريك... وأخرى بـ «اذهب» كغاية: اذهب لنريك من آياتنا

(١) سورة القصص، الآية: ٣٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ في كتاب طب الأئمة بإسناده إلى جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في الآية قال: يعني من غير مرض وفي البرهان ٣: ٣٥ عن ابن بابويه بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: من غير مرض.

(٣) البرهان ٣: ٣٥ - عن تفسير القمي بسند عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان موسى شديد السمرة فأخرج يده من جيبه فأضاءت له الدنيا.

الكبرى، كما قدمنا لك من آياتنا الصغرى مثالاً ونموذجاً للكبرى، وحقاً إن الآيات التي أوتيها موسى هي من الآيات البصرية الكبرى، لها دلالالتها البالغة القصوى، آيات لفرعون وملائه، وأخرى لهم ولقوم موسى.

وترى إذا كانت العصا واليد البيضاء ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ فكيف تكون آية القرآن هي الكبرى وهي في القمة العليا، لا نظير لها ولا تسامي؟.

﴿مِّن﴾ هنا تعني أنها البعض من الكبرى، مهما كانت الكبرى درجات، كما أولو العزم من الرسل خمسة وهم درجات، أم تعني - فقط - الآيات البصرية وهي في الحق من الكبرى، وقد تسامي آيات بصرية لرسول الهدى، وأما الآية البصيرية فهي منحصرة في القرآن، منحسرة عما سواه من كتابات الوحي، فلا تعنيها هنا ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ لأنها الوحيدة لا تناظر أو تسامي، فلا تدخل في نطاق الجمع من ﴿ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ وهي الكبرى الوحيدة غير الوهيدة بأيَّة نظيرة في آيات الرسالات، لأنها منقطعة النظير بين كل بشير ونذير!

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾:

يُذكر فرعون في أربعة وخمسين موضعاً من الذكر الحكيم، مما يدل على مدى فرعنته اللعينة، ثم «الشيطان» في (٦٨) مهما ذكر إبليس (١١) مرة، والمجموع تزيد خمسة وعشرين على فرعون، فهو - إذاً أخ له كبير بين الملائين الملاعين من إخوته الشياطين!

ولما تبلغ الفرعنة إلى ذلك الطغيان على الله ادعاءً للربوبية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١]، وعلى عباد الله استخفافاً فتعبداً له: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[٢] عند ذلك التنمرد والتمرد التفرعن يؤمر موسى بالذهاب إليه، دون نظرة لذهاب فرعون إليه، إذ صده طغيانه عن الله فضلاً عن رسول الله!

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٤.

فالى هنا كان الوحي بآياته لموسى نبوءة دون رسالة، وهنا بزغت الرسالة الضخمة الصعبة الملتوية، فلقد عاش جواً من طغيان الفرعنة ردحاً من عمره، فلا يرى من نفسه بنفسه نجاحاً تاماً في هذه الرسالة إلا بإمدادات ربانية، فليسأل ربه في هذه الحضرة المباركة ما يطمئنه في هذه المواجهة الخطيرة، ويكفل له قوامه في هذه الرسالة، فلذلك:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾:

هنا يتطلب نصرة ذاتية متصلة بساحة هذه الرسالة في بنود ثلاثة، ومن ثَمَّ نصرة منفصلة في ثلاثة أخرى هي أزرٌ للأولى وأَولى له ثم أَولى أن يستعد بزاد أزيد وراحلة أرحل في هذه السفرة الشاقة الطويلة، لا لأمر إلا لـ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾[1]!

نرى سؤل موسى هنا في إحدى عشرة آية، لم يكن ليسألها قبل أمر الرسالة، مما يدل على أنها كلها سؤل الرسالة بمسؤولياتها الخطيرة.

والبند الأول من سؤله الأول ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وذلك شرح لتلك الرسالة بعد شرحه للوحي النبوءة فليس - إذاً - سؤالاً لسؤل حاصل، فإنه سؤال جاهل، وسؤل قاحل، فقد اختاره الله حين أوحى إليه، وكيف يختار ضائق الصدر عن تلقي الوحي؟ وكما شرح الله صدر محمد ﷺ وإن كان دون سؤال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2] «لك» كرسول إلى قوم لدٍّ وأمة خالدة، وكذلك لموسى إلى فرعون اللدود وأمة لدودة.

فانشراح الصدر لنبوءة الوحي أمر، وانشراحه للرسالة بعدها والنبوة أمر آخر، حيث يلتقي فيها جماهير الأمة، ومكذبو الرسالة، فلكلٍّ مجال حال

(١) سورة طه، الآيات: ٣٣-٣٥.
(٢) سورة الشرح، الآية: ١.

ولكل حالٍ مجال، ولكل هدًى شرح للصدر كما لكل ضلال ضيق: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ . . .﴾[1].

فانشراح الصدر في سبيل الرسالة يحوِّل مشقة المسؤولية الكبرى إلى متعة، وعناءها إلى لذة، مهما كانت السبيل شاقة شائكة وملتوية طويلة، وهنالك ينجح الرسول وتنجح الرسالة في هدفها الأسمى بمكانتها العليا.

أجل إنه وجد لنفسه ضيقاً في هذه الرسالة دون ما قبلها: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤﴾[2] فشرح الله صدره عن ضيقه في نفسه وبوزيره هارون.

وفي تقديم نداء الرب في الدعاء «رب» تعليم لكيفية الدعاء أنها تبدأ باسم الربوبية، فإن من قضيتها الاستجابة بعد الدعاء بشروطها، والتربية الرسالية تتطلب في سؤلها شرح الصدر عطاءً من الله، كما تتطلب العصمة الإلٰهية.

و«لي» هنا دون «لنا» دليل الاختصاص لذلك الشرح، فللمؤمنين به، الصابرين معه، المثابرين على إيمانهم، أن لهم شرحاً كأمة، ولموسى الرسول شرح كرسول وأين شرح من شرح؟.

أجل ﴿ٱشۡرَحۡ لِي﴾ فأنا الذي أمرتني بالذهاب إلى فرعون، اشرح لي حتى لا يضيق إذا ازدحمت عليّ عقبات الدعوة وخلفيات الدعاية.

والبند الثاني: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ وطبعاً هو أمر الرسالة المعسور، يتطلب

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٠-١٤.

إلى ربه أن يجعله الميسور، وليس ذلك سؤالاً لتخفيف في رسالته، أم تطفيف عن وحيه ودعوته، كأنه يباين سؤل الرسالة، فإنه مزيد منها في كل حلقاتها، وحياً وآية وسعة في دعوة ودعاية.

إنما هو يسرها لموسى على عسرها، بمثلث من التأييد الرباني، مزيداً في تصبُّره، ووزيراً من أهله، وتأييداً في نجاحه من عنده تيسراً للعسير، لا تقليلاً للكثير، فإنه حط من ساحته، ومسَّ من كرامته، وكيف يدعو عاقلٌ ربه هكذا فضلاً عن نبي كموسى!.

ففي ذلك التيسير ضمان لنجاح الرسالة، مهما أوذي الرسول في سبيلها، حيث الهدف الأسمى منها نجاحها، لا أريحية الرسول في حياته الدنيوية دونما أية صعوبة، فإن طبيعة كل رسالة هي الدوائر المتربصة بها، المحتفة عليها، كلما كانت الرسالة أوسع، والمرسل إليهم أشرس، فدوائر السوء عليها أكرس وأكرث.

والبند الثالث: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾.

ففقه القول الرسالي ضرورة في متن الرسالة، فلتحلل كافة العُقَد عن لسان الرسول حتى يفقهوا ما يقول.

أترى ﴿عُقۡدَةٗ﴾ هنا كانت حبسة في لسانه لخلل عضوية[1]؟ وتلك حبسة في أوصل وسائل الرسالة، ونقص في الرسول، فإن السنة القولية هي من

(١) في نور الثقلين ٣: ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: وكان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون ويربي موسى ويكرمه ولا يعلم أن هلاكه على يده فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين - فأنكر فرعون ذلك عليه وقال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلبها أي قلعها فآلمه ألماً شديداً فهمَّ فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بل يدري فقالت له: ضع بين يديه تمراً وجمراً فإن ميز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمراً وجمراً وقال له: كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرائيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لم يعقل فعفى عنه.

مثلث السنة المعصومة الرسالية، بل هي أولاها دلالة مهما كانت العملية أولاها تأثيراً، فقصور اللسان أم تقصيره في بلاغ الرسالة خلاف كونه حجة بالغة الهية، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[١]!

ثم ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٢] إنها تكذب نقص العضو، وتحبس عن لسانه حبسته العضلانية، فإن معقود اللسان ليس فصيحاً حتى يكون هارون أفصح منه.

ثم الفصاحة ليست سبب التصديق، ولا خلافها سبب التكذيب، فرب فصيح يكذَّب، ورب غير فصيح أم أخرس يصدق!.

فتلك إذاً عقدة عن الإفصاح تقية أمّاهيه، فحل عقدة هنا هو إزالة التقية عن لسانه وكفاية سطوة فرعون وغواته، حتى يؤدي عن الله آمناً، ويقول متمكناً لا خائفاً ولا وجلاً، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة.

فتراه يقول: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾[٣] فكما أن ضيق صدره كان بالنسبة لهذه الرسالة، كذلك عدم انطلاق لسانه لأنه رُبي عند فرعون وليداً، وَقتل من غواته نفساً، وطبيعة الحال هنا تقتضي بتثاقل اللسان مهما كان فصيحاً، وبتكذيبه وهو أصدق الصادقين: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[٤].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٨-٢٢.